لوكسون.. روح الشعب الصيني

ترجمة: د.سندس فوزي فرمان
عن مجلة "مغازين ليتيرير"

من خلال أعماله، ناضل لوكسون من أجل تحرير الصين من عبء الإقطاع الاحتلال الأجنبي.

السؤال المطروح باستمرار في الصين اليوم على الأجانب المهتمين بالأدب الصيني الحالي هو سؤال مباشر وملح وساذج ظاهريا ألا وهو: " في رأيك هل هناك لوكسون جديد؟" ما لم يصبح السؤال: "من هو برأيك؟" وفي الحقيقة فإنه بالنسبة لكثير من الصينيين ومن كل الأعمار فإنهم يرون إن الصين تشهد في السنوات الأخيرة ظهور مجموعة من العبقريات الكامنة والتي تحتوي على تشكيلة مشابهة لتلك التشكيلة من "العظماء" الذين شهدتهم سنوات الثلاثينيات والذين كان لوكسون من ضمنهم. ويعتبر لوكسون اليوم قد تجاوز كل الكتاب الآخرين في زمنه وحتى من تبعهم.

مما لاشك فيه إن الصينيين شديدوا التعلق بلوكسون أما السبب الرئيسي لهذا التعلق فهو نشاطه كوطني كبير ومخلص. أما أعماله القوية جدا والجميلة جدا والمعروفة في العالم بأسره فقد أعطت الإحساس في البداية باعتبارها إبداعا عبقريا لإرادته الوطنية. بالنسبة للصينيين فإن عظمة لوكسون تكمن في إنه عمل طوال حياته وبكل ما أوتي من إصرار وقوة على تغيير الصين الإقطاعية ؛ "صين الظلمات" التي ولد فيها لوكسون (١٨٨١) وتحويلها إلى صين حديثة ومستقلة والتي بدأ يشهد ولادتها عند وفاته (١٩٣٦). ولمن يرغب في استيعاب عظمة لوكسون هذه فإنه من الضروري التذكير ولو بشكل مختصر بوضع الصين عندما رأت عينا لوكسون الضوء.

- كانت السلالة الحاكمة في حينها وهي سلالة الكنغ من أصل منشوري وهي ليست صينية (هان). منذ اجتياح المنشوريين الصين (١٦٤٤) حاولوا أن يقتبسوا قليلا من الثقافة الصينية إلا أن الأسرة الإمبراطورية وطبقة النبلاء المنشوريين احتلوا دوما مكانا مميزا في البلاط وفي الإدارة المدنية وفي الجيش. عمل هؤلاء على إدامة نظام فصل عنصري وقح فقد كانت كل عائدات الرز السنوية تدفع للمنشوريين كما إنهم تمتعوا بنظام مالي مميز وبأقاليم شاسعة غنية حجزت لهم كي يستغلوها وكانت ممنوعة على الصينيين. كما إن زواج الصينيين من المنشوريين كان محرما كما إنهم أجبروا الصينيين على تصفيف شعورهم بالجديلة الطويلة والتي أصبحت رمزا منظورا- ولكنه في الوقت نفسه واقعا لا يحتمل- لخضوع الصينيين في حين إنهم يشكلون الغالبية العظمى من السكان. ونجد في مقالات لوكسون وفي قصصه القصيرة عدد من الإشارات عن المقاومة التي ازدادت شيئا فشيئا بين جيل الشباب ضد قضية الجديلة تحديدا وللاضطهاد الذي تعرضوا له بسبب رفضهم الانصياع لهذا المظهر. ازداد الحقد ضد السيطرة والامتيازات التي يتمتع بها المنشوريون وذلك بسبب فساد وعدم كفاءة الحكومة الإمبراطورية المنشورية. وفي الوقت الذي اجتاحت فيه الكوارث الطبيعية البلاد (تحطم سدود النهر الأصفر في ١٨٨٧ والتي أدت إلى غرق الأراضي وجفافها في نفس الوقت وكذلك وباء الطاعون والكوليرا ابتداءا من ١٨٨٩) بقيت إدارة البلاد في أيدي الموظفين الإمبراطوريين والذين اشتروا في معظم الأوقات مناصبهم بأثمان باهظة وسواء كانوا من الذين اجتازوا امتحانات الموظفين الكبار أم لا. يؤدي هذا النظام إلى نمو غير متكافئ في الثروات لهؤلاء الموظفين. وبمجرد وصول هؤلاء إلى درجة من النفوذ يصبحون مستقلين نسبيا عن السلطة المركزية ولا يتوقف عندها هؤلاء السادة والذين هم "أمراء الحرب" عن القتال فيما بينهم وعن تدمير الريف الصيني ونبح سكان القرى التي تقع تحت أيديهم.

- زادت قوة التدخل الأجنبي في الصين من بؤس وشقاء الشعب الصيني. ومازالت الفكرة التي لدى أبناء المحتلين أي نحن أنفسنا غامضة عن الأسباب التي دفعت الإنكليز والفرنسيون وبعدها سريعا كل الإمبرياليات الأخرى الطامعة في مهاجمة "الكعكة الصينية". فمثلا نحن لازلنا نجهل بأن "حرب الأفيون" التي اندلعت في ١٨٤٠ والتي ساندها البرلمان البريطاني بسيل من القرارات والقوانين كان هدفها (ونتيجتها) فتح القارة الصينية رغما عنها وبرغم المقاومة البطولية ضد سوق الأفيون الإنكليزي المزروع في مستعمرة الهند الإنكليزية. كانت هذه الزراعة تشكل مصدرا لأرباح فلكية للبرجوازية الإنكليزية التي كانت في أوج عظمتها. وقليلا ما كانت تهتم للبؤس الذي يعيش فيه الشعب الصيني فقد كان شعبا مستغلا، مذلولا ومسمما بالمعنى الحرفي للكلمة حيث كان مجبرا على الكد دون هوادة من أجل تأمين ما يعمق عبوديته ويصفيه جسديا ومعنويا. سيبين لنا لوكسون إن الجوع والبؤس يدفعان إلى استهلاك الأفيون فهو يساعد المدمن على تحملهما كما إنه يوضح في كتاباته بأن آثار هذا الداء لا تتوقف عند كبت إرادة المقاومة وامتصاص رأس المال الوطني إلا إنها تذهب إلى أبعد من ذلك فهي تدمر القوى الجسدية للعاملين وتشل أقدام الجنود. في نهاية القرن التاسع عشر تلك تم اختراق الصين من كل الجهات سواء كان ذلك من قبل السماسرة أو مدراء الشركات الأجنبية المدعومين من قبل الحملات العسكرية والبعثات الثقافية. كانت الصين شبه مستعمرة. ولكون السلطة المنشورية كانت مستعدة للتضحية بأي شيء من أجل الحفاظ على امتيازاتها فقد لجأت إلى جنود المحتل للسيطرة على انفجار الغضب الشعبي فمن ثورة الفلاحين إلى تمرد وعصيان سكان المناطق المنكوبة إلى مهاجمة مقرات سكن كبار الموظفين إلى ذبح الأجانب. هذا هو وطن لوكسون الطفل والفتى.

حينما أصبح لوكسون طالبا في نانجنغ (نانكن) في مدرسة ذات اتجاهات غربية لم تستطع عائلته المحطمة أن تؤمن له دراسة طويلة تحقق له الوصول إلى مركز موظف كبير في الإمبراطورية كما كان حال أسلافه وصولا إلى جده ولم يكن لوكسون مستاء من ذلك فقد عاش طفولته في الريف الصيني حيث تعرف على ذلك البؤس الذي يعجز عنه الوصف. كما إنه راقب عن كثب شناعة النظام الإقطاعي الذي سيجعل منه موضوع رواياته الأولى. لذا سنرى إنه سرعان ما ينجذب إلى النماذج السياسية التي قدمها الغرب. وحينما رأى ذات يوم خارطة الصين وهي مقسمة وإقليمه أصبح أرضا يابانية أخذ عهدا على نفسه أن لا يقف مكتوف الأيدي. وهو إن رحل إلى اليابان لدراسة الطب فلم يكن ذلك رغبة منه فقط في أن يجتث مواطنيه من أيدي المشعوذين الذين قتلوا أباه إنما لأنه علم تماما إن مفهوم "الميجي" أي الإصلاح الذي نجح فيه اليابانيون قد جاء مع حقائب الطلبة "العائدين من الغرب".

كانت اليابان في ذلك الوقت هي الأرض التي انتظمت فيها وبقيادة سين يات سن مجاميع الشباب الوطنيين المصممين على عدم تكرار أخطاء وفشل الإصلاحيين الصينيين الذين أرسلتهم الإمبراطورة إلى الموت عام ١٨٩٨. صمم هؤلاء على القتال بطريقة أكثر راديكالية وأقسموا على قلب النظام المنشوري وإقامة الجمهورية. اليابان هي أيضا البلد الذي استطاع فيه الطلبة الحصول على المعارف الغربية والحاملة في طياتها للفكر الحديث. وضمن تفكيره بأحسن الطرق التي عليه أن يسلكها من أجل إحياء بلده المريض توصل لوكسون بلده المريض توصل لوكسون إلى بديهية ألا وهي إنه يجب أن يترك الطب ويتجه إلى الأدب: "علام معالجة الأجساد إذا كانت الأرواح مريضة؟". بدء عندها نشاطه كأحد "الموردين الكبار" فمن أجل "إيقاظ النفوس" سيعمل على تقديم كبار كتاب الغرب لشبيبة بلاده ؛ كتاب كبار لأنهم وضعوا أقلامهم في خدمة قضية عادلة ومن أجل استقلال الشعوب وتحرير الفكر وتدمير العالم القديم. وهكذا عمل على تقديم بايرون وشيلي وليرمونتوف وبوشكين ونيتشة. لم يكن ذلك سوى بداية المهمة التي سيستمر فيها لوكسون طيلة حياته. سيقدم كذلك عشرات من الأعمال التقدمية ومئات الكتاب النموذجيين. حيث ترجم بنفسه أو عمل على جمع العديد من المترجمين إلى جانبه بانيا بذلك "جسرا" ذي أهمية كبيرة بين الفكر الغربي والفكر الشرقي.

ومع هذا كله فبعد قيام ثورة ١٩١١ ونشوء الجمهورية الصينية في ١٩١٢ نجد أن لوكسون ككثيرين غيره من الديمقراطيين الثوريين أصيب بخيبة أمل كبيرة جدا فقد بقيت الأفكار والأشياء القديمة على حالها في السلطة. وسنجد هذه القصة المأساوية وأفضل تحليل ممكن لها في واحدة من أشهر قصص لوكسون القصيرة "قصة آك الحقيقية". ولإصلاح هذه الثورة الفاشلة كان يجب انتظار "حركة الرابع من أيار" ١٩١٩.

إن خيبة الشبيبة الصينية عند معرفتها بفقرات مجلس فرساي وكذلك عزمها الذي استطاعت من خلاله أن تنتزع عنوة من أيدي حكومة بكين (وهم أمراء الحرب في الشمال) الرفض القاطع لهذه الفقرات ؛ كل ذلك ساعد على إشعال البلد. وأدى النصر السياسي إلى إنجاح كل المطالب الثقافية التي كانت السبب في ذلك النصر. كما إن هذا النصر قد أكد من بين أشياء أخرى على انتصار الصحافة والتعليم والأدب وانتصار لغة "الكلام" على اللغة الكلاسيكية والتي هي لغة صعبة التعلم وغير متاحة لجماهير الشعب – كما هو حال اللاتينية عند مجئ دو بيليه ورونسار – إلا إنها مع ذلك لازالت حتى يومنا هذا تمجد وتكلل بالغار كل ما يدخل ضمن "الأدب" إذا ما استخدمت فيه. وعلى كل حال فإن هؤلاء الذين مهدوا لحركة الرابع من أيار لم ينتظروا الرابع من أيار للبدء بتجسيد ذلك الأدب الذي يستخدم اللغة الحديثة. فمنذ ١٩١٨ كان لوكسون قد نشر قصة " مذكرات مجنون " والتي ليس فيها من رواية غوغول سوى العنوان. أفتتح بذلك أسلوبا مبتكرا جدا والذي سيفرض مباشرة طابعه الخاص به حيث إنه ينطلق من عناصر أصيلة مأخوذة من واقع الحياة تأتي لتثري وصف وكشف المجتمع الصيني وتغنيهما بقيمة رمزية ذات بعد عالمي.

وستأتي أعمال كثيرة أخرى لها نفس الشهرة لتتبع هذا العمل الأول والتي ستشكل كلها وبمرور السنين مجموعة مؤلفات لوكسون. وباستثناء الشعر الذي سيفضل معه استخدام اللغة والأشكال الكلاسيكية لم يتوقف لوكسون بعد ذلك عن الكتابة باللغة الحديثة إلا إنه سيستخدم الأنواع الأدبية والأشكال المختلفة وذلك بحسب الظروف وبحسب مقتضيات نضاله من أجل صين محررة من عبء الإقطاع ومن عبء الاحتلال الأجنبي.

أما الأمر الذي لم يتوقف لوكسون عن محاربته فهو عدم نقل أدبية قصصه القصيرة ومذكراته وحكاياته إلى مقالاته و "نثره المنوع" و "نصوصه التافهة"- كما وصفها خصومه- الناشئة من صراعه اليومي ضد الطغيان. إلا إن لوكسون وأصدقاءه تحولوا إلى العمل السري وقامت المراقبة بمنع أعمالهم ثم التجسس عليهم وحرمانهم من مصدر العيش وإخضاعهم للوشاية والابتزاز ثم زجهم في السجون ومن ثم قتلهم (شهد لوكسون موت أقرب أصدقائه الشباب).

باختصار تم التركيز عليهم بشدة من قبل "حملات الحصار والإبادة على المستوى الثقافي" التي شنتها قوات الغومندانغ ويمينها الفاشي والتي رافقت حملاتها العسكرية. كيف استطاع الامتناع عن كتابة ما يجب كتابته للدفاع عن نفسه؟ إلا إن تلك "النصوص التافهة" والتي حاول البعض إنكار قيمتها الأدبية لأنها كانت ذات فاعلية سياسية وهي أيضا ذات أسلوب أدبي شديد الروعة لما تملكه من قوة تعبير عالية ومذاق خاص لما فيها من فكاهة ومن لذاعة التهكم والسخرية القادحة وهي لذلك كله كانت فعالة جدا في إيصال الأفكار.

وفي الحقيقة فإن استطاع لوكسون أن يكون له هذا الوزن المؤثر على الرأي العام في زمانه وإن استطاع أن يبقى حتى يومنا هذا بالنسبة لمواطنيه يمثل صوت الحق رغما عن اضطرابات وتقلبات الأحداث التاريخية فهذا تحديدا لأنه استطاع أن يعطي فكرا قويا جدا ومباشرا وصارما (صرامة قد تبدو أحيانا كفظاظة بالنسبة لمعاصريه الذين اتخذوا طرقا أكثر هلامية) إضافة إلى هذا الفكر فإنه تمتع بجمالية الأسلوب المؤثر جدا ؛ ذلك الأسلوب المثمر والجامح والذي لا يضاهى في زلزلة ذلك التراخي المريح والكسول للأفكار القائمة.

أما اليوم فإن الأغلبية الساحقة من الصينيين وتحتكم إلى لوكسون الذي تسميه "روح الشعب الصيني" وتصنف أعماله الآن باعتبارها جزء من "الواقعية النقدية". فبعد سبعون عاما الآن من موت لوكسون وعشرون عاما بعد الأحداث الكبيرة التي هزت الصين بعد موت ماو تسير كل الأمور كما لو إن هذه "الواقعية النقدية" بدأت تجد حقوقها في الصين الشعبية ولذا نجد أن هناك العديد من الأعمال ذات القيمة المتميزة قد أخذت طريقها إلى النشر سواء كان ذلك فيما يخص أعمال النقد والهجاء المباشر (أو ما يسمى بأدب التوثيق) أو الغير مباشر (أدب الخيال). وهذا الأمر لا يمس بعض الكتاب فقط إنما عشرات ومن أكبر الكتاب حيث يبدو إنهم متأثرين بلوكسون وبخطه حيث نجد ذلك الغضب الذي يعبر عن نفسه بالضحك وهذا الفن في احتواء الواقع ضمن أصغر تفاصيله الدقيقة مع إعطاءه قيمة رمزية ؛ كما إن هناك على وجه الخصوص تلك العاطفة الدافئة والمقنعة خجلا بالفكاهة. تلك الفكاهة التي لا تقاوم وهي بالتحديد فعالة جدا في تأثيرها على عامة الناس.

وقد تتنوع أساليب هؤلاء الكتاب وتختلف في بعض عناصرها عن كتابات لوكسون إلا عن ذكراه تبقى حاضرة وكل واحد منهم يدعي إنه مستمر في خط لوكسون وإنه مملوء بروحه. فهل نستطيع أن نقول إن من بين هؤلاء هناك لوكسون جديد؟

لا أجرؤ على تأكيد ذلك إلا إنه من الممتع أن نسمع تأكيدا عليه.

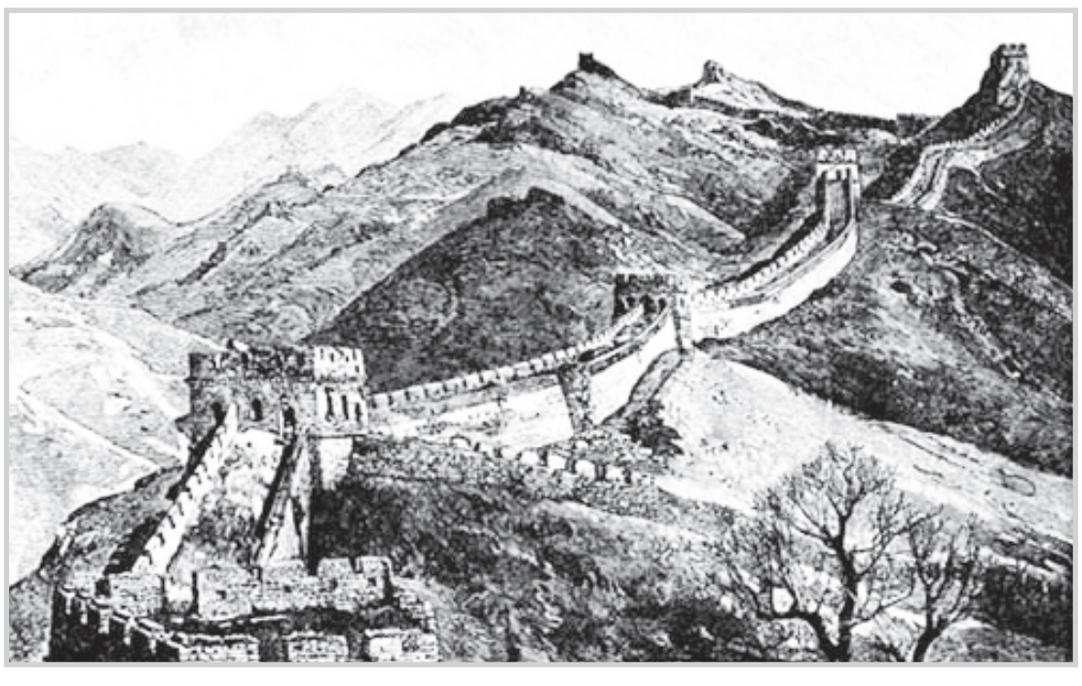

تلويحة المدى

هل نحب الشخصيات الأدبية الشريرة؟

شاكر لعيبي

ثمة استعادة ملحوظة لترجمة وقراءة أعمال شكسبير في العالم العربي، حيث كرّستْ مجلة الهلال المصرية (تموز ٢٠٠٨) ملفاً تعريفياً طويلاً للشاعر الإنكليزي، ونشر الشاعر والمترجم صلاح نيازي ترجمة جديدة لمسرحيته "هاملت" بعد سلسلة من المقالات يتعرض فيها بالنقد والتحليل لبعض مترجميه مثل جبرا إبراهيم جبرا وعبد القادر القط. وهناك تأملات أخرى أنجزها الكاتب غالب حسن الشابندر عن شكسبير. وللتو قدّم عودة القضاة ترجمة أخرى لمسرحيته "مكبث" في الأردن، بينما أعادت سلسلة المسرح العالمي الكويتية طباعة المسرحية نفسها (مايو ٢٠٠٨) من ترجمة جبرا إبراهيم جبرا. لا نعرف سراً لهذه الاهتمام سوى الغواية التي تمارسها سطوة الشعر الشكسبيري في العالم لأسباب غدت بديهية تقريباً: بلاغته العصيّة بوصفها إبداعاً في اللغة لكن أسئلته الوجودية العميقة. كلاهما مترابط دوماً على ما يبدو في النصّ الشامخ. لا نعرف سرّاً للعودة تلك سوى أنها عودة مبرورة ومفيدة وأنها تصير مناسبة لإثارة الأسئلة عن مفهوم الشعر وحكمته، في وقت يغيب فيه عن العالم العربي هذان الأمران ويُضبّبان.

واحد من الأسئلة التي يمكن إثارتها بمناسبة شكسبير، مما قد يكون نُسيَ في الكتابات المشار إليها، هي السبب في مَيْل الجمهور، بل تعاطفه (إذا لم نتكلم عن أنفسنا من حيث لا ندري) مع شخصيات ليست بالرفعة الأخلاقية والإنسانية التي قد يأمل بعضنا بها. كان مكبث شكسبير قاتلاً قام بقتل ضيفه بما قد يوصف بالوضاعة، بتحريض من زوجته لكي يحوز العرش. برغم فعلته المشينة نجد أنفسنا في نهاية المطاف مصطفين شعورياً معه حتى النهاية. قد تأخذنا الرعشة عند التفكير بأننا نصطف بالأحرى مع قاتل مهموم بحيازة السلطة وشهواتها، لكننا سوف نمضي بشغف حتى النهاية للتعرّف على مصيره (مصيرنا؟). لقد شُغفنا قبل ذلك ببعض من شخصيات دوستوفسكي المزعجة، المقامرة، السكيرة، صعبة المراس، بل المنحطة. لقد أحببناها على الورق لأننا قد لا نحبها البتة في الواقع عندما يصادفنا أمثالها في حياتنا. وهذا وجه آخر للمسألة.

يعتمل في شخصية هاملت، من جهتها، وجه آخر من شرّ ما موجود لدى مكبث. غير أننا نعشّق هاملت الشكسبيري ونهيم بشخصه الأدبي، معيدين أنتاجه بالمئات من الأعمال المسرحية والسينمائية، ناسين دوماً صراعه مع نطفة الشر في روحه. القتل أم التسامح؟. ظل السؤال يؤرقه. الثأر لمقتل أبيه أم غضّ الطرف؟. إنه يختار القتل ثأراً والجنون. لكن أليس شبح أبيه الذي ظهر له (اسمه هاملت أيضاً) هو دالة على الشر الذي يتلألأ في روح هاملت الابن بمعنى من المعاني؟. لم يستطع هاملت بسبب سمو ثقافي في داخله أن يصرِّح كما فعل مكبث: "لقد صممتُ، ولسوف أشدّ كلّ عضو في الجسد لهذه الفعلة الرهيبة. هيا [...] على الوجه الكذوب أن يخفي ما يعلم القلب الكذوب". قتل هاملت رمزياً الطاهرة البريئة أوفيليا. وهنا يعبّر عن شر داهم. هذه هي طبيعة التراجيديا. وهذه هي طبيعة الحياة في الغالب. هل نحبّ إذنْ الشخصيات الأدبية الشريرة؟. هل لأن هناك في ذواتنا، نحن أنفسنا، شيئاً من الشرّ المطمور تحت ركام من المزاعم الرفيعة والمعارف المُنتقاة والثقافات التي تخفّف فحسب منه؟. أم لأن هناك، في أعمال شكسبير وديستوفسكي على سبيل المثال تحليلاً عميقاً غير مباشر لذواتنا، نحن أنفسنا، وإدانة لنزعة الشر الموجود فيها؟. ليس "الجميل" رديفاً دائماً "للخيِّر" كما تزعم الأفلاطونية. "أزهار الشر" البودليرية هي التجلي الأعلى لما يسميه الفيلسوف الكندي أرفيه فيشر Hervé Fischer بـ "جماليات الشرّ" المنبثقة في الأدب والفن التشكيلي الأوربيين منذ القرن التاسع عشر. في لحظات الانزلاق الأولى يهمس مكبث لنفسه بأن "الخطاب الخارق للطبيعة لا هو بالشر ولا هو بالخير"، وهي جملة تلخص فكرة شكسبيرية عن جدارة، مُستعادَة بشكل ما في مجموعة الشاعر الفرنسي بعد قرنين من الزمن. ولعل الجملة المذكورة تفسّر ميلنا المُلتبس الموصوف لشخصيات مثل هاملت ومكبث.

يبقى أمر واحد لا شك فيه: إنها شخصيات فيها الكثير من المتخيَّل، على أن فيها الكثير من الواقعيّ، بل التاريخيّ المحض كما تبرهن دراسة كينيث ميوار التي أرفقها جبرا بترجمته. من هذه الزاوية ثمة بُعْد رمزيّ دفين في جميع الشخصيات التاريخية ذات المصائر التراجيدية. وهذا البعد هو الذي نميل له نحن لكي ندافع عن شجرة الخير ونعزّز جذورها في أرواحنا.

هل نحبّ إذنْ الشخصيات الأدبية الشريرة؟. هل لأن هناك في ذواتنا، نحن أنفسنا، شيئاً من الشرّ المطمور تحت ركام من المزاعم الرفيعة والمعارف المُنتقاة والثقافات التي تخفّف فحسب منه؟. أم لأن هناك، في أعمال شكسبير وديستوفسكي على سبيل المثال تحليلاً عميقاً غير مباشر لذواتنا، نحن أنفسنا، وإدانة لنزعة الشر الموجود فيها؟. ليس "الجميل" رديفاً دائماً "للخيِّر" كما تزعم الأفلاطونية.

متابعة

نادي الشعر في الحلة يقيم أمسية في الكفل

عامر صباح المرزوك
بابل

نادي الشعر في الحلة أقام العديد من الاماسي في غرفة تجارة الحلة وفي فندق الإسراء السياحي وهي جزء من آلية عمله من اجل الانفتاح على المؤسسات واطلاع جمهور اكبر وان لا يبقى حبيس جدران مبنى اتحاد الأدباء وبدعوة من الباحث الشيخ كريم برهان الجنابي في مضيفه بناحية الكفل وبحضور عدد من الأدباء والمثقفين أقام نادي الشعر في الحلة أمسية تم فيها القاء عدد من الكلمات والاستماع الى قراءات الشعراء.

جاء في كلمة الشيخ كريم برهان الجنابي وهو يحتفي بالحضور: لم يسبق لي التطاول مع الأفذاذ المبدعين.. ولا اعرف كيف يخذل الإنسان نفسه.. لكنني اعلم ان محاولة الكمال من المحال.. الإنسانية غايتي.. وليس الجمال المعطر بالعزلة.. فعنيت بأسلوب عيشي أكثر من اسلوب كتابتي.. أقف متضائلاً أمام أصحاب العقول النيرة، والأقلام القادرة على رسم الحياة العامرة.. تفضلكم في داري يعكس صدق العلاقة بين مثقفي بابل.

بينما تحدث الباحث الدكتور صباح نوري المرزوك عن المجالس الأدبية قائلاً: تعد المجالس الأدبية رافدا مهما من روافد الثقافة، حيث تهدف هذه المجالس التي تعقد في البيوت والتي تضم قراءات شعرية ونقدية ومحاضرات اثارت العديد من الجدل والنقاش، ويذكرنا هذا المجلس المعقود في الكفل بتلك المجالس التي كانت تعقد في ربوع الحلة وريفها ابتداء من بداية القرن العشرين حتى يومنا هذا وابرزها مجالس: آل سماكة، وآل عوض، وآل مرجان، وآل القزويني، وآل الخفاجي وغيرها.

والقى الشعراء جبار الكواز واسعد النجار ومحمد سالم البيرماني وصلاح اللبان وحمزة الخفاجي عدداً من قصائدهم.

نصوص

شـــــاي عـــــراقـــــي

سميرة المانع

أثناء الحكم العثماني بالبلاد العربية، ولأكثر من أربع مئة سنة، كتب بعضهم رسائله عارضاً مشاكله السياسية والاجتماعية بمقدمات كالآتي:
" إلى جناب حضرة سامي القدر والألقاب الأجل الأفخم دفتردار أفندي أدام الله تعالى إقباله وأشرق كواكب سعادته وزاد أفضاله..... الخ "

في القرن العشرين وما حاذاه، اختلفت الرسائل قليلا، وإن حافظت على الأسلوب القديم من حيث الكذب والمراوغة لبلوغ الهدف وإنْ تمّ ذلك مباشرة ومن دون لفٍ أو دوران. على هذا النهج لم تكنْ غريبةً الرسالةُ الاضطرارية المرسلة من المرأة اللبنانية، إلى موكلها هادي العراقي. كان يملك قطعة أرض صغيرة بمنطقة الحازمية ببيروت، كلفها أن تبيعها له في حالة وجود شار. رسالتها التي بعثت بها اليه على عنوانه ببغداد بتأريخ ١٩٧٩ تقول:

" البنت حازمة خطبها رجل برازيلي، وقد تزوجت منه الآن. ذهبت إلى البرازيل كي تعيش معه."

انبسطت أسارير هادي فورا بعد قراءتها. فَهِمَ المعنى المقصود متنفساً الصعداء. إن أرضه التي يملكها بالحازمية قد بيعت وانتهى الأمر. تخلص منها أخيراً. دبّ الفرح متسللا إلى قلبه خفيه، خائفا أن يعلنه صراحة وبوضوح على الملأ لئلا يفتضح أمره. الحكومة الأمرة الناهية ببغداد لن تغفر له فعلته. إنها لا تقبل أن يكون عند العراقي فلسٌ واحدٌ إلا إذا علمت به، وكيف حصل عليه وأين أخفاه، إلى آخر المعزوفة... أما أن يكون عند العراقي الساكن بالعراق قطعة أرضٍ في بلد آخر فهذه من أكبر الكبائر. جريمة لا تُغتفر. الحكومة العراقية المتسلطة تقف بحزم تجاه هذا الأمر. سيسافر صاحب الملك خارج العراق حتماً " ويلعب على كيفه " كما تتصور. على الحكومة أن تمنع السفر أولاً ناهيك عن البيع والشراء و العقاب جاهز محسوم للشخص المدان. ما عليه إلا أن يُهيئ نفسه للسجن والتعذيب، قبل أن يُحكم عليه بالإعدام لجرائم من هذا النمط الخطر المضر بالمصلحة العامة في قانونها.

جاهداً كبح العراقي فرحه ذلك النهار المشرق بعد أن تسلم رسالة وكيلته اللبنانية. لكنه فضل التطلع في الحيطان بدلا من الوجوه وهو يسير في الطريق العام، متحاشيا نظرات المارة، متوجساً من أن يكون أحد منهم قد قرأ الرسالة اللبنانية وفهم مضمونها الحقيقي أثناء عملية فتح الرسائل البريدية في دائرة الرقابة الحكومية. كلما رأى زياً خاكياً أو عيوناً ثاقبة أو شوارب شوكية سوداء أسرعت دقات قلبه بالخفقان فيحاول، بصمت، تهدئتها. في الوقت نفسه لا تستطيع ذاكرته أن تمحو تراكمات تجارب مرت عليه ولا أمل في نسيانها. قفز أمامه صديق قديم من باب مقفل يعود إلى زمن الشباب فجأة. رآه مجسداً أمامه ممرمطاً. كان يهوديا عراقياً من بقايا فئة هاجر معظمها إلى اسرائيل بعد أن شُجعوا لتسقط عنهم الجنسية العراقية سنة ١٩٤٨. يهودي خائف مرتعب من أن يبوح بأسراره إلا لثلة من أصدقاء قدامى حوله من كافة الأديان والأقوام الواثق منهم ثقة تامة. كان هؤلاء الأصدقاء يعرفون أن لديه أخاً صار بإيران الآن، هارباً رافضاً أن يذهب للعيش بالدولة العبرية عن عقيدة ومبدأ. صار هذا الأخ الهارب فقيراً معوزا في وضعه الحالي، يكاد أن يتوسل المارة من أجل الصدقة، يحتاج مساعدة أخيه بالعراق ليبعث له نقودا بالخفية بيد بعض الاشخاص المسافرين. الفترة حرجة في تأريخ يهود العراق أثناء تأسيس دولة اسرائيل واتهام البعض لهم بميولهم الصهيونية. الأخ المسافر يهاتف أخاه داخل العراق بين حين وآخر. يسأله أن يبعث له نقوداً وبسرعة. يستخدم عبارات وهمية رمزية يفهمها الجانب الآخر ويدرك مغزاها بالحاسة السادسة على افتراض وجودها عند الإنسان. اتفقا، من دون تخطيط مسبق، أن يستعملا لفظة (الشاي) بالهاتف بدلا من كلمة (نقود) صراحة، من أجل التمويه والتضليل في التعبير عما يريدون قوله فعلا:

- لم اتسلم الشاي حتى الآن.

- سيأتيك قريباً

أحيانا يهاتف الأخ في العراق أخاه بإيران كي ينبئه بخبر مفرح:

-بعثتُ لك الشاي بيد كاظم. اتصل به على العنوان التالي..

الآخر يشكو والثاني يهمز والشاي يُستعمل في الحوار باطمئنان وحرية.

في يوم ما، وعلى غفلة منهما، لفتت أسماع الرقيب الحكومي على المخابرات الهاتفية في دائرة البرق والبريد العامة، ببغداد، مسألة الشاي الغامضة المتكررة. تكفل بإيصال النميمة والشكوك إلى السلطات الحكومية المختصة. سرعان ما يُلقى القبض على الأخ في الداخل وهو في خضمّ حواره مع أخيه في الخارج، مكرّرا كلمة (الشاي) جيئة وذهاباً بحرارة وجدانية.

وراءها، أُودع الأخ المتحدث، من بغداد، التوقيف، حسب قرار الحاكم العسكري العام، محكمين القبضة عليه خوفاً من أن يهرب فيفقدوا الشواهد الثبوتية للجريمة النكراء المتوقع حدوثها وشيكاً.

أثناء ذلك، بضع صفعات حارة بمركز الشرطة على صدغيه كانت كفيلة كي توقع الأخ أرضاً مغشياً عليه. عندما استفاق من الإغماء لم يتمكن من إخفاء حقيقة وجود أخيه الهارب إلى إيران ودعوته المتكررة له بالهاتف كي يرسل له نقوداً من أجل المأوى والطعام. أمر الحاكم بسجنه خمسة أعوام فقط. قضى ثلاثة منها في السجن ليُفرج عنه في السنة الرابعة مع السجناء الآخرين بموجب مرحمة حكومية جاءت في الوقت المناسب.

خرج من السجن وقد بيّت أمراً في غاية السرية والأهمية بالنسبة له. أراد أن يغادر العراق بأقرب فرصة ممكنة. لم يخبر أحداً بالأمر ولا أقرب المقربين إليه من أصدقائه. ابتعد عنهم جميعاً، خائفاً أن يسمعوا دقات قلبه أو انكماش خفقاته.

XXXX

بعد نصف قرن من فراقهما التقى الصديقان القديمان يوما، في أرض الله الواسعة. تعارفا بشكل صبياني مفزع لمن كان قربهما من الناس. اكتشفا عمق العلاقة بينهما أثناء فترة شبابهما الضائع. جلسا يستعيدان وقارهما على كراسي مقهى قريب، بعدئذ، بخجل من العابرين المارين المقهى المزين بورود ملونة في المدخل. بدأ يتحدثان بضوضاء لا يمكن تجنبها من شدة الفرح والانفعال. قهقهات تتكسر بصدريهما المثقوبين من كثرة التبغ والرجفات في المطارات والمعاملات الرسمية في الدول التي مرّا بها والخيبات والنكسات. مفتخران بفضح أسرارهما وألغازهما علانية الآن وكيف استخدما (الشاي) و (البنت حازمة) لمآربهما الخاصة.

الأمور بريئة كورود المكان. تلفتا يبحثان عن نادل كي يجلب لهما شاياً عراقياً كسابق عهدهما في مقاهي بغداد. يريدان شاياً عراقياً غامق اللون مع التأكيد على تعبيرهما السابق للنادل بـ (سكر زيادة)، في قدح زجاج شفاف يسمى (الاستكان) المعروف لديهما قديما. نسيا أنهما مبتليان بمرض السكر اليوم، وهما ممنوعان من اخذ السكر منعا باتا من قبل الطبيب. لكن المقهى، لحسن الحظ، أنقذهما وحفظ ما تبقى من صحتهما المتدهورة فهو لا يقدم الشاي لزبائنه لكون الغالبية العظمى منهم تفضل شرب القهوة البرازيلية.